الفصـــل الثانى

مصدر الدين و بواعث التدين عند الغربيين

المبحث الأول

دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين

هل الدين أمر فطرى فى الإنسان وُلد مزوّدًا به ؟ أو أن الدين عرض طارئ استحدثه الإنسان؟ وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات ينبغى أن نقرر بداية لماذا تطرح هذه التساؤلات وما قيمة الإجابة عليها ؟

ونبادر فنقول: تكمن قيمة طرح هذه الأسئلة، والإجابة عنها فى أن كثيراً من الباحثين المحدثين تعالت صيحاتهم معلنة أن البحث فى أصل الدين له أهميته ونتائجه الحاسمة. لأنه إذا أمكن البرهنة على أنه من أعلى أى موحى به من عند الله. فإن ذلك يوثق صحته، ويثبت حقيقته وفرض إلزامه (وأرى أنه لن يستفيد دين من الأديان الموجودة الآن من البحث فى أصل الدين مثلما يستفيد الإسلام لأنه الدين الوحيد الآن الذى يمكن إثبات أنه وحى من عند الله وأنه الوحيد موثوق الصحة ، والذى يمكن البرهنة عليه دينياً وعلمياً. عكس الأديان الأخرى الكتابية أو الوضعية. ومن ثمَّ فإن البحث فى أصل الدين تكمن أهميته فى نظرنا أنه يدلك على أن الدين هو الإسلام) وإذا أمكن البرهنة على أن الدين من أسفل (أى من وضع البشر أفراداً وجماعات) فهو فى هذه الحالة إنتاج بشرى شأنه شأن غيره من الأفكار والمخترعات القابلة للخطأ أو للصواب ، وقد ينتهى الأمر فيه إلى أنه أمر لا يوثق به وليس له سلطة الإلتزام[١]. ونحن انطلاقاً من هذا نتناول الاتجاهات الرئيسة فى هذا الموضوع ونستطيع أن نضع أيدينا وسط الكم الهائل من الآراء والمقولات حول مصدر الدين على اتجاهين رئيسيين [٢]: وسوف نتحدث عن أحدهما.

---

(١) فى الدين المقارن ص ٢٤

(٢) فى الدين المقارن ص ٢٤

وهو القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهذا ادعاء الغربيين الذين سوف نعرض رأيهم فى هذا المبحث، ونرجئ الحديث عن الاتجاه الآخر إلى الفصل الثالث إن شاء الله.

هذا الاتجاه يمثله مجموعة من الباحثين الغربيين وتقوم حجتهم على أن الإنسانية لابد وأن تكون قد عاشت قروناً طويلة فى حياة مادية خالصة قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة قبل أن تفكر فى مسائل الدين والروح بل قال أحدهم وهو " فولتير": إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من القساوسة والكهنة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء[١]

وهذا الرأى الحديث من أمثال " فولتير " سبقه به جماعة من السوفسطائيين الذين نظروا بسخرية إلى الدين والقانون فقديماً زعم السوفسطائيون " أن الإنسان كان فى أول نشأته بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خُلُقٍ وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ثم وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شئ وتسمع وتهيمن بحكمتها على كل شيء "[٢]

وإن أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف مشاربهم قديماً وحديثاً يجمعهم رأى واحد هو أنهم لا يرون مصدراً للدين خارج هذا العالم الحسى ومن الطبيعى أن يجمع هؤلاء على إنكار الألوهية كحقيقة موضوعية ذات وجود فعلى ثابت شامل ومستقل كما يجمعهم القول بالتطور فى الديانات[٣]

يقول رالف لنتون " إن عقيدة القادر المطلق فى نهاية الأمر الذى لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامى لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادى، وكانت لنتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم مفصلة عن

---

(١) فى الدين المقارن ص ٢٤

(٢) نفسه ص ٨١

(٣) فى الدين المقارن ص ٤٨

المحرمات فى كل مجال من الحياة الإنسانية، وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين يتقلبون أحكام آبائهم العمياء، ويطيعونها وما التصور الإلهى (اليهودى) إلا خيال مثال لأب سامى . مع شيء من المبالغة والتجريد فى الأوصاف والطاقات "[١]

ونلاحظ هنا أنه يتحدث عن الدين اليهودى كنموذج وإلا فهو يرفض جميع الأديان ويعتبر أنها من صنع الإنسان أو المجتمع ـ المهم أن الدين ليس من عند الله ـ كما يزعم.

ويذهب البعض إلى أن العوامل التاريخية كانت أحد الأسباب الرئيسة التى جعلت الإنسان يخترع الدين ـ ويفترض قوى خارجية يلجأ إليها عند الحاجة ـ وهذه القوة هى الإله ـ اخترع ليجتمع الناس حوله ويهرع الجميع إلى رضاه.

يقول " جوليان هكسلى " : لقد خلق العقل الإنسانى الدين، وأتم خلقه فى حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية [٢] ويضيف قائلاً " فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته، وهذه البيئة قد فات أوانها أو كاد، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل فأما فناءها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين [٣] ويذهب إلى أبعد من هذا حين يقول: لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد. وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولا شك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور " [٤].

إنه كإخوانه فى الغى ينكر أن يكون الدين من عند الله ويؤكد أنه من صنع الإنسان ويجمع كل مظاهر الدين. ويلغيها بكلمة واحدة وعلى الرغم من أن الدين

---

(١) نقلاً عن الإسلام يتحدى ص ٣٧ Tree of culture , Ralphlinton

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٨

(٣) نفسه

(٤) انظر الإسلام يتحدى ص ٣٨ـ ٣٩

من صنع الإنسان إلا أنه كان مناسباً فى مرحلة معينة أما وقد تطور المجتمع فَقَدَ فَقَدَ الدين ضرورته فى الوقت الحاضر وسوف يكون لنا وقفة مع هذا الادعاء على صفحات هذا البحث إن شاء الله.

وإذا كانت هذه الأقوال آراء لبعض الملحدين ـ يعلنونها للناس ويكتبونها فى مؤلفاتهم ـ فإن الأمر الأدهى والأمر أن تقوم دول على هذه الأفكار وتتبنى هذه الآراء. يقول " إنجلز " فيلسوف الشيوعية " فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة فى الأساس الذى نمونا عليه نحن الناس نتاجها أيضاً، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شئ أما الكائنات العلوية التى ولدت فى مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاسات خيالية لوجودنا نحن "[١]

أما السبب فى ترويج مثل هذه الآراء وانتشارها وقيام دول على أساس منها فمرده إلى بعض الأمور منها:

١ـ القدوة غير الحسنة والانحلال الخلقى عند رجال الكنيسة. إضافة إلى الاضطهاد الدينى الذى مارسه رجال الكهنوت ضد العلم وأصحابه.

٢ - ظلم القوانين الوضعية، وسوء توزيع الثروة العامة التى منحها رجال الدين لأنفسهم بغير وجه حق[٢].

كل هذه الأمور وغيرها الكثير أدى إلى تلك الآراء وشيوعها إضافة إلى أمر نحسبه جوهريًا يتمثل فى الغرور الذى صاحب الاكتشافات العلمية إذ ظن المخترعون وأفراد المجتمع على السواء أنهم وضعوا أيديهم على الحقيقة متمثلة فى الاكتشافات العلمية بعيداً عن الدين وتكاليفه.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٧٢ وانظر ص ٢٩٣ وما بعدها

(٢) أنظر الدين للدكتور دراز ص ٨٠، وفى الدين المقارن للدكتور كمال جعفر ص ٤٩وانظر المعالجة القيمة لفساد الكنيسة ورجال الدين فى مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٥ـ ٧٨

المبحث الثانى

البواعث على التدين عند القائلين بأن الإنسان مصدر الدين

يجب أن نفرق بين مصدر الدين ، وبين الباعث على الدين. فمصدر الدين عند أصحاب هذا الاتجاه هو الإنسان نفسه ومن ثمَّ فإن كثيراً من هؤلاء ينكرون الألوهية ويرفضون ما وراء الطبيعة والمادة، ويرون أن الإنسان نشأ على الأرض وكان تطويراً وارتقاءً طبيعياً للخلية الأولى التى انتهت إلى فقاريات راقية كالقرود والنسانيس ثم الإنسان [١]

وهؤلاء لهم مذاهب شتى فى الباعث على التدين سوف نتعرض لأهمها على الصفحات القادمة إن شاء الله.

---

(١) الإنسان فى ظل الأديان ص ٤٢

أهم النظريات فى تفسير الباعث على التدين وتشمل المسائل التالية:

المسألة الأولى: نظرية المذهب الطبيعى

يرى أنصار هذا المذهب أن الباعث على التدين لدى الإنسان مظاهر الطبيعة من حوله وقد انقسموا إلى فريقين فريق ذهب إلى أن الذى دفع الإنسان إلى التدين

أ- التعظيم للطبيعة الناتج عن التأمل فيها

وحجة هذا الفريق أن الطبيعة بمظاهرها المختلفة بما لها من قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها فيجتمع للإنسان القديم شعور مؤلف من دهشة وإعجاب رأى به الكون أشبه شيء بالمعجزة[١]

ومن أصحاب هذا الرأى " ماكس موللر " الذى أيد وجهة نظره بدراسة الفيدا الهندية حيث أن أسماء الآلهة إنما هى أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها اللغوى، وتعنى كلها ظواهر الطبيعة الرئيسة ومن الأمثلة على ذلك كلمة Agnl وهو اسم أحد الآلهة الرئيسيين لم يكن لهذا الاسم أول الأمر أية دلالة دينية بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادى كما تدركه الحواس، والذى يدل على أن هذا المعنى كان بدائياً أننا نجده فى اللغات الهندية الأوربية ففى اللاتينية " Ignis " وفى الليتوانية " Ugnis " وفى السلافية القديمة " Ogny " وكل هذه الكلمات متصلة بكلمة " Agnl " فى رأى " ماكس موللر "

أما ما تعبر عنه " Dyaus " فهو الشمس المتلألئة، ومعنى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة فى قواها وعناصرها المختلفة. فكانت القوى والعناصر الطبيعة أولى الأشياء ألمؤَلتها، وهكذا بدأت الإنسانية دينها [٢]

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١١٤

(٢) انظر نشأة الدين ص ٧١ - ٧٢ للدكتور النشار وانظر كتاب الله فى نشأة العقيدة الدينية للعقاد ص ١٧ - ١٨

بـ الباعث على الدين الخوف من مظاهر الطبيعة

ذهب إلى هذا الرأى جيوفنس " Jovons " حيث رأى أن النظر فى مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية ولكنه يقرر أن الظواهر العادية لم تكن كافية لإيقاظ فكرة التدين. نظراً لأن تكرارها على الحواس تجعل النفس تألفها، ولكن الطبيعة المفاجئة مثل الزلازل، والبراكين والطوفان، والصواعق هى التى دفعت الإنسان إلى التدين بما هو مفطور فى غريزته استحالة أن يحدث شيء من لا شئ إلى درجة أن الطيور والحيوانات فضلاً عن الإنسان تفزع عند سماع صوت مزعج ، وتلتفت إلى الصوت المزعج بحثاً عن فاعله أو مصدره. فكان من الطبيعى أن هذه الحوادث الرهيبة المفزعة تُزعج من يشهدها وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها وإذ كان لا يرى لها سبباً ظاهراً اضطر عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفى ذى قوة هائلة [١] هذه القوى الطبيعية بمظاهرها المختلفة ومن ثمَّ انبعث ولاء الإنسان لقوى أو كائنات خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف والرهبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقى شرها، ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه فأصبحت قوى الطبيعة وكائناتها آلهة تُعبد. ما ينفع عبده وما يضر عبده ليأمن أذاه " ويتقى شره.

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١٢٦

المسألة الثانية

نظرية المذهب الحيوى Amimisme

تعرضت نظرية المذهب الطبيعى أو الكونى فى الباعث على التدين إلى النقد من جانب كثير من الباحثين ورفضوا هذا المذهب الطبيعى. وذهبوا إلى أن الدافع على التدين هو المذهب الروحى. وقد ذهب إلى هذه النظرية " تيلور " فى كتابه " المدنية البدائية " وتابعه عليها مع تعديل طفيف الفيلسوف الإنجليزى " سبنسر فى كتابه مبادئ علم الاجتماع " ومفاد هذه النظرية :

١ـ أن فى الوجود كائنات عاقلة سواء أكانت فى الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أبدانها أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة أم كانت أرواحاً أعلى من ذلك وأسمى.

٢ـ أن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوى الخارقة قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية، وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة هكذا تنشأ عقيدة التأليه التى تمت على مرحلتين :ـ

الأولى: فى بقاء أرواح الموتى. وهذه الفكرة تعتمد فى جوهرها على تجربة الأحلام، والتفسير البدائى. لهذه التجربة خلاصته أن الحلم عند البدائيين انتقال حقيقى لروح الشخص المرئى فى المنام فيراه حقيقة على شكل طيف.

وإذا كانت أرواحهم تجئ إلى الرائى فى المنام كما تجئ أرواح الأحياء دل على بقاء أرواح الموتى واستمرار اتصالها بالأحياء وتمكنها من نفعهم وضرهم فاقتضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذاها واستدرار عطفها.

أما المرحلة الثانية : وهى عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية فيرى " تيلور " أن العقلية البدائية فيها من السذاجة الطفولية ما يجعلها لا تميز بين الجماد والحيوان، ويجعلها تعامل كلاً منهما معاملة الكائنات الحية كما يداعب الطفل دميته ويناجيها كأن فيها روحاً. بينما رأى " سبنسر " أن القدماء عبدوا الطبيعة لأن الأسلاف كانوا

يُسمون أحياناً بأسماء مظاهر الطبيعة فكان بعضهم يُسمى نجماً، والآخر نمراً، والثالث حجراً ثم بعد ذلك انتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسماه بتلك الأسماء نفسها [١]

يقول برجسون " والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه تلك هى الوظيفة الأسطورية أو الملكة الخرافية التى بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية هذه الشخصيات قد تكون (أرواحاً) بادئ الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد "[٢]

(١) نشأة الدين ص ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٣٧ وانظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٣
(٢) الإنسان فى ظل الأديان ص ٣١

المسألة الثالثة: مذهب الطوطم (Totem)[١]

ذهب إلى هذه النظرية عالم الاجتماع الفرنسى " دور كايم " ومفاد هذه النظرية أن فى معظم القبائل الاسترالية نظاماً له أهمية عظمى فى الحياة الاجتماعية وهو

" العشيرة " هذه العشيره مرتبطة ليس برباط الدم أو المصاهرة أو غيرها، وإنما بإطلاق اسم واحد عليهم، وهذا الاسم هو نوع معين من الأشياء المادية تعتقد العشيرة أن لها به أوثق الصلات ويسمى هذا النوع " الطوطم " و " طوطم " القبيلة هو " طوطم " كل فرد من أفرادها ولكل عشيرة طوطمها الخاص بها. أو الأشياء التى تستخدم " طواطم " فهى فى معظمها متصلة بأنواع نباتية أو حيوانية. وهى الأشهر أما الأشياء الجمادية فإن القائمة التى قدمها الذين دللوا على هذه النظرية خلت من الرموز الجمادية إلا عدداً ضئيلاً جداً يحمل أسماء حيوانية أو نباتية[٢]

" والطوطم " الذى تتخذه العشيرة ليس فرداً إنما هو نوع أى نوع الحيوان على العموم وكان الطوطم الذى تتخذه العشيرة شعاراً لها يرسم على كل الأمتعة التى تستخدمها العشيرة بل كانوا يحملونه معهم إلى القتال ويدافعون عنه أعظم دفاع.

وهذه الطواطم سواء من النباتات أو الحيوانات.. كان تقديسها يؤدى إلى تحريم أكلها اللهم إلا فى بعض الأكلات الدينية، وأن من يقدم على هذا فجزاؤه الموت، لأنه كان يعتقد أن هذه الطواطم يسكن فيها عنصر هام لا يمكن أن يدخل فى المكان

---

(١) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية هو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه فهو فى المشهور To tem ولكن يكتب أيضاً Totam أو Toodim أو dodaim أو Ododaim ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها وتارة بمعنى العلامة أو الشعار . انظر الدين للدكتور دراز ص ١٥١

(٢) نشأة الدين ص ١٠٠ ، ١١٤ ، ١١٥ والدين للدكتور دراز ص ١٥١

غير المقدس إلا إذا أعطيه وقضى عليه، وإن كانت بعض العشائر أباحت لأفرادها الذين بلغوا سناً معيناً أكل تلك النباتات والحيوانات [١]

ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات إنما هو تحريم شكلى لأن ترخيص أكله فى بعض الأحوال ثم توسيع نطاق هذا الترخيص سيوسع بالتالى من دائرة الإباحة لأنها الأصل كما يرى " سبنس، ر وجلين " اللذان اعتبرا أن هذه التحديدات والنواهى طارئة على المجتمع الطوطمى[٢] ولكن التساؤل هنا هل يمكن أن نرى فى الطوطمية مذهباً فى الوجود يحاول تفسير الكون أو بمعنى أدق: هل الطوطمية هى تلك العقائد الخاصة الضيقة التى لا تتناول سوى الرمز الطوطمى.. والنبات والحيوان الذى تشير إليه الرموز. ثم أفراد العشيرة؟

إن مجموعة العقائد المتنافرة أو الجزئية لا يمكن أن تكون ديناً بمعنى الكلمة لأن الدين الحقيقى هو ما يحاول الإحاطة بالكون كله وأن يضع تصوراً عاماً له. وتلك هى المحاولة التى أرادها " دور كايم " حين أراد أن يجعل من الطوطمية مذهباً فى الوجود ديناً يفسر الكون وهو فى هذا يُشبه الطوطمية بأى دين آخر من الأديان التى قامت بهذا العمل[٣]

بل يذهب البعض إلى أبعد من هذا حين يعتبرون أن الطوطمية تمثل أصلاً للأديان بين البدائيين والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطوطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية فى استراليا وأفريقيا وأمريكا وبعض المناطق الأسيوية[٤]

أما " تايلور وويلكن " فقد ذهبا إلى أن الطوطمية قد نشأت عن عبادة الأرواح التى كان السلف محوراً لها وكانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم، وكانت فى مبدأ الأمر قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتداخل شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى

---

(١) نشأة الدين ص ١١٥ وانظر مصطلح الطوطمية فى الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ملحق. معجم المصطلحات ص ١٠٩٩. ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدى عبيد

(٢) نشأة الدين ص ١١٥

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) الإنسان فى ظل الأديان د. عمارة نجيب ص ١١٤

الظن بأن هذه الأرواح قد حلت فى أجسام بعض من الآباء والأجداد واتجه إليها التقديس [١]

وقد أيد هذان الباحثان نظريتهما بما لاحظوه فى بعض جزر أندونسيا من تقديس الناس للتماسيح هناك [٢]

أما " جيفونس " فيذهب إلى أن الطوطمية قد انبثقت عن عبادة مظاهر الطبيعة وذلك أن الإنسان البدائى تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ولم يكن ثمة وسيلة أقوى من القرابة فأعضاء العشيرة الواحدة يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ولذلك اصطنع العقل البدائى صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ولم يُقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى. لقد نظر البدائى إلى عالم الحيوان والنبات نظرته إلى عالم الإنسان فلم يعتد بأفراد هذا العالم وإنما اعتد بفصائله وأنواعه وعمد إلى هذه الفصائل والأنواع فربطها بعشائرها بوشيجة القرابة ولُحْمَة النسب [٣]

ومن عجيب الأمر أن تقديس الطوطم لا يزال حتى الآن له وجود بين القبائل الاسترالية الأصلية وبين المجتمعات الوثنية بماليزيا وأيضاً بين الهنود الحُمر بالساحل الشمالى الغربى فى أمريكا. ويذكر بعض الباحثين أنه لازالت إلى الآن توجد آثار منه فى أوربا والدليل على ذلك تسمية مدينة بيرن (Berne) فى سويسرا حيث تعظم الفيلة وكلمة بيرن فى الألمانية جمع بير بمعنى فيل [٤]

كانت هذه أهم النظريات التى تحدثت عن الباعث على التدين عند الإنسان بعد أن قررت أنه مصدره. وهناك بعض الاتجاهات الأخرى أقل شهرة من التى قبلها. نتحدث عنها إجمالاً بكلمة موجزة.

---

(١) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى نقلاً عن الإنسان فى ظل الأديان ص ١١٨

(٢) انظر نشأة الدين د/ على سامى النشار ص ١٤٦

(٣) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى ص ٩٥ وما بعدها نقلاً عن الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢١و انظر نشأة الدين للدكتور على سامى النشار ص ١٥٠ ـ ١٥١

(٤) انظر معجم المصطلحات الملحق بالموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ج ٢ ص ١١٠٠وضع الأستاذ حمدى عبيد.

بعض الاتجاهات الثانوية التى تحدثت عن الباعث على التدين

١ـ الشعور بالحب

هذا الاتجاه يقرر أصحابه أنه ما دام أن التدين مصدره شعور الإنسان فإن اللائق أن يكون هذا الشعور متعلقاً بالحب لأنه المعين الذى لا ينضب فى الحياة الدينية، وهو الذى يفسر التضحيات والأعباء التى يتحملها المتدينون، ومعنى ذلك أن الغريزة الدينية ـ على فرض وجودها تتضمن كل المقومات التى تدفعها نحو الوجود الإلهى ـ لأن الحب ليس إلا تعبيراً عن نزعة أكيدة، ورغبة مُلِحّة فى داخل الإنسان ذاته، وهذا ما جعل بعض الباحثين فى الأديان يعتبرون أن الدين فى كل صورة ينتهى أخيراً إلى الميل والشوق إلى الله والدأب فى البحث عنه وأن الحق الذى ترثه كل الأديان يتمثل فى هذه الحقيقة الكبرى وهى أن الكل يبحث عن الله، وأن الصور المختلفة للأديان تدرك غاية الدين بدرجات مختلفة[١]

٢ـ الاتجاه النفسى

ومفاد هذا الاتجاه أن الباعث على الدين عند الإنسان شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهما اللتان تتألف منهما حياة النفس فى أيسر مظاهرها. إن قدرنا قد رسم دون استشارتنا فقضى علينا أن نكون فى زمن معين، ومكان معين وترك لنا ميراثا من الملكات والطبائع لم يكن لنا فيه شيء من الاختيار؟ بل إننا لا نجد فى أنفسنا، ولا فى أى مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافى لوجودنا، ولا غايته النهائية المعقولة ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب ، وهذه الغاية خارجاً عنا فى الوجود العام وما التدين إلا الاعتراف بهذه التبعية فى تسليم وخضوع هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبى للعقيدة الإلهية، ومهما تكن فكرة الألوهية فى عقولنا ناقصة غير محدودة فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا. فهو حاضر لدينا. بل يفرض نفسه علينا فى هذا الشعور حتى

---

(١) انظر الدين المقارن ص ٣٥ـ ٣٨

إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسابية مطمئنين. إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهى فينا. هذا هو الينبوع العميق الذى تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم[١]

وأخيراً كانت هذه الآراء ملخص الاتجاهات التى ذهبت إلى أن الإنسان هو الذى صنع الدين على اختلاف فيما بينهم حول الباعث على التدين إن من جهة الطبيعة رغبة أو رهبة أو من جهة الأحلام التى يراها الإنسان والذى أخذ منها باعثاً على التدين ـ أو من جهة الشعور بالحب كباعث دفع الإنسان إلى التدين ـ أو الإتجاه الأخير الذى يستند على الشعور النفسى.

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٥ ـ ١٣٨

تأثر بعض المفكرين فى العالم الإسلامى بالقول بالتطور فى العقيدة

نلاحظ أن الفكرة التى تجمع هذه المذاهب الغربية جميعها ـ على الرغم من اختلافهم ـ هى فكرة التطور أى أن الدين لم يكن . ثم اخترعه الإنسان بادئاً بالتعدد فى المعبودات منتهياً إلى التوحيد.

وينبغى أن نلاحظ أن التوحيد الذين ذهبوا إليه ليس هو التوحيد الذى جاء به الأنبياء ، وإنما توحيد المعبودات القديمة فى معبود واحد.

ويُعدُون هذا من التطور العقلى الذى وصل إليه الإنسان.

وقد انتقلت هذه الآراء إلى العالم الإسلامى وتأثر بها بعض الباحثين. نعم خالفوا الغربيين فى أن المعبود الواحد هو ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه. يقول الأستاذ " سليمان مظهر " فى كتابه قصة الديانات " جاء وقت اعتقد فيه الإنسان أن للأصنام قدرة إذا تقدم لها بقربان على أن تفعل له الخير وتلحق الضرر بأتباعه، ولكنه مع مرور السنين بدأ يتصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على وجه الأرض وتباينت صور هذا الخالق فى أذهان البشر حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد أو رب الأرباب أو كبير الآلهة

ومنهم الأستاذ " طه الهاشمى " فى كتابه تاريخ الأديان وفلسفتها " على ما يذكر الدكتور عوض الله حجازى [١]

ومنهم الأستاذ " العقاد " فى كتابه "الله " يقول " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائيه فى اعتقادها بالآلهة والأديان هى :ـ

١ـ دور التعدد	Polytheism
٢ـ دور التمييز والترجيح	Henotheieism
٣ـ دور الوحدانية	[٢]Monotheism

---

(١) انظر مقارنة الأديان ص ٣٨

(٢) الله كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٢٨.

ويذكر عن دور الوحدانية (أن الأمة تجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع[١]

ويواصل انتصاره لهذا الرأى بقوله " ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج، وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة"[٢]

ويؤكد فكرة التطور بقوله " فالتطور فى الديانات محقق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى "[٣]

ثم يقول " فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليها العين. وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلومات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض ، والسماء، والكواكب ، والأقمار وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [٤]

وسوف نناقش دعوى الأستاذ العقاد بالتفصيل فى مسألة مستقلة ضمن المبحث الثانى.

---

(١) نفسه ص ٢٨

(٢) نفسه ص ٢٩

(٣) نفسه ص ٣٢

(٤) سورة الأنعام الآيات ٧٦ ـ ٧٩ وانظر الله ـ كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦، ٣٧.

المبحث الثانى

تقويم المذاهب الغربية فى مصدر الدين والباعث عليه

وسوف نناقش هذه الاتجاهات وندحض ما ذهبوا إليه من أن الدين مصدره الإنسان وأن الباعث عليه ما زعموه فى المسائل التالية:

المسألة الأولى: مناقشة أصحاب المذهب الطبيعى:

من الملفت للنظر أن الذى فند آراء أصحاب هذا الاتجاه ثُلَّةٌ من الغربيين وكانوا على المستوى الفكرى والعلمى لأصحاب المذهب الطبيعى إن لم يتفوقوا عليهم. - ولكن نقد هؤلاء لأولئك - كان القصد منه إبطال وجهة نظر الخصم ليخلص الناقد إلى إثبات ما ذهب إليه هو، ويبدو هذا واضحاً فى نقد "دور كايم"للمذهب"الطبيعى" "والحيوى" كباعثين على التدين وإبطالهما لإثبات صحة ما ذهب إليه من أن الدين من اختراع العقل الجمعى متمثلاً فى الطوطم ونستطيع أن نجمل أهم ما وُجه إلى المذهب الطبيعى من نقد فى النقاط التالية:

١ - إن ما استند عليه أصحاب المذهب الطبيعى بعد دراستهم للفيدا الهندية وملاحظاتهم حول وجود أسماء الآلهة بأسماء مظاهر الطبيعة كالشمس، والنار، والتشابه بين هذه الأسماء ومظاهرها عند كثير من الأمم الأخرى كما ذهب "ماكس موللر" لقد انبرى جماعة للرد عليه فيما ذهب إليه، وأثبتوا أن أصول الكلمات التى زعم "موللر" تشابهاً بينها وبين غيرها فى الديانات الأخرى لم توجد منفصلة على الإطلاق بشكل يدل على أنها قائمة بذاتها، وإذا كان الأمر كذلك يعد من الممكن أن تكون هذه الأصول للغة البدائية للهنود، الأوربيين فقد نشر Oldemlurg أبحاثه عن الفيدا فى كتابه La/ religion/ du/ vead/ - وحاول أن يثبت أن آلهة الفيدا - إن كانت ثمة آلهة فيها - لا تحقق فيها

الصفة الطبيعية التى ينسبها إليها "موللر"[١] وهذا النقد قائم على البحث والدراسة والاستقصاء الأمر الذى يجعل قبوله أولى من كلام "ماكس موللر"

٢- لو كان مبعث العقيدة هو مظاهر الطبيعة ، وهدف العبادة هو استرحامها لما استمر الإنسان على تدينه بعد ما ظهر له عدم استجابة الطبيعة؟ والحاصل أن الديانات لم تنقطع ولن تنقطع. فلابد أن يكون لها منشأ وهدف آخر ثم إذا سلمنا جدلاً بعبادة الطبيعة للانبهار بها والوقوف أمام مظاهرها فكيف نفسر عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات والأشياء التافهة التى لا توحى بهذا الشعور[٢] ثم إن الذين ذهبوا إلى أن مظاهر الطبيعة وتأمل الإنسان لها هو الذى دفعه على التدين. قول يحتاج إلى نظر فإن رتابة الطبيعة لا تولد إلا إحساسات مؤقتة ولا يمكن أن تُعد أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة هذا من ناحية، ومن جهة أخرى هل الإنسان البدائى كانت عنده المقدرة الفكرية والتأمل فى تلك المظاهر واستكشاف العجائب فى هذا النظام

٣- أما القول بأن الإنسان عبدها خوفاً منها يقول " " ساباتييه " إن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفى وحده لتفسير الفكرة الدينية ولابد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة، وشل الحركة، وولد اليأس ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر فى البحث عن عون ينقذه من الخطر الذى وقع فيه.فلابد لتحقيق الشعور الدينى من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلهما من الأمل والرجاء اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع [٣]

هذه هى أهم ما وُجه من انتقادات إلى النظرية الطبيعية التى ذهب أصحابها إلى أنها الدافع على التدين. وينبغى أن نلاحظ أن فكرة الخوف فكرة رئيسة فى الأديان الكتابية، والإسلام ملئ كتابه بالآيات التى تخوف العباد وتحذرهم مع مراعاة الفرق

---

(١) نشأة الدين ص ٨٠/٨١

(٢) الدين ص ١١٩

(٣) الدين للدكتور داراز ص ١٢٦/ ١٢٧

الشاسع بين الخوف الذى تمليه الطبيعة كقوة غاشمة ليس لها هدف ولا غاية، ولا نفع ولا ضر، وبين الخوف الذى ورد فى الأديان الكتابية و ورد أيضاً فى الإسلام. لأن الخوف الوارد فى الكتب السابقة على لسان الأنبياء قبل محمد ﷺ إن صحت نسبته إليهم فإنه بمثابة التحذير والتنبيه من أجل المصلحة الغائية له ثم إن هذا الخوف لا يعم مطلق الإنسان وإنما يتوجه إلى المنحرف الذى يريد أن يفسد الحياة ويهلك فيها الحرث والنسل هذا من ناحية ثم إن الخوف على لسان الأنبياء لا يكون من مظاهر الطبيعة ـ لأنهم يعلمون أتباعهم أن الكون بما فيه ومنْ فيه مسخر للإنسان ـ والأنبياء يسعون إلى تبديد الخوف من أى كائن سوى الله ولذلك ينصرف الخوف فى معظم الحالات إلى الأمور التى تتعلق بالحياة المستقبلية أى فى الآخرة. فإذا ما تركنا الأديان الكتابية وجئنا إلى الإسلام فإن آيات القرآن تجمع بين الترغيب والترهيب فى كثير من الآيات بل إن بعض آيات القرآن تبدأ بجانب الأمن والأمان والتبشير أولاً. وبعد ذلك تأتى آيات العذاب مثل قوله تعالى ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٨وانظر المعالجة القيمة لهذه الفكرة فى الدين المقارن ص ٣١ ـ ٣٣ للدكتور كمال جعفر رحمه الله

المسألة الثانية: نقد المذهب الحيوى

توجه مجموعة كبيرة من الباحثين الغربيين لتفنيد ما ذهب إليه البعض من أن الأحلام المنامية هى الباعثة على التدين وتمثل نقدهم فى الآتى: -

١- أن الصور التى يستحضرها البدائى غير متماسكة وغير مطردة. ثم إنه لا يستطيع أن يعتقد أن ما يراه حقائق ثابتة على الدوام لا اختلاف فيها ولا تباين. والبدائى لا يستطيع أن يميز فى أحلامه بين ما يكون ناشئاً عن وحى وإلهام، وما يكون منبعثاً عن أوهام المخيلة [١]

٢- أثبت علم الأجناس أن فكرة البدائى عن النفس كانت فكرة مركبة غير بسيطة فلم يكن يعتقد أن له نفساً واحدة بل له عدة نفوس ، وثبت أيضاً أن الإنسان قديماً كان يعتقد أن له مشاركات فى اسم أو فى ظل. أو فى طوطم وأن كل هذه الأشياء توجد فى وقت واحد ويتصل بها الإنسان. قد تمتزج وتتشابك ولكنها لم تنبثق إطلاقاً عن إحساس بفردية واحدة.

أما المذهب الحيوى فيضع تصوراً فردياً للأنا Ego ولكن هذه الفكرة التى جعلها " تيلور " التطور العقلى للإنسان لم يصل إليها البدائى على الإطلاق[٢]

٣- وكما يقول " دور كايم " إن البدائيين ليسوا فى حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام وإنهم وإن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذى وضعته النظرية. ثم إن تجربة الحلم إن سلمنا أنها تكفى للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفى لتعليل الاعتقاد بألوهية مصدرها فإن من الرؤى ما هو هذيان وأضغاث أحلام، وفيها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية. وليس شيء من ذلك يثير عقيدة التأليه. ثم إنه من جهة أخرى لا يعرف فى أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل

---

(١) انظر نشأة الدين ص ٤١ - ٤٢

(٢) نفسه

بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف وإنما الذى كان موضعاً للتقديس عندهم من عُرف فى حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً فى الطبيعة أو فى المجتمع. فليس الموت إذاً شرطاً ولا سبباً فى هذا التقديس، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة أو تلك الجوهرة الإلهية التى تتجلى آثارها فى الحوادث الإنسانية العظيمة [١]

وينبغى علينا أن نذكر بأن نقد " دور كايم " وغيره للمذهب الحيوى كان تكأة لإثبات وجهة نظره الداعية إلى أن الباعث على التدين عند الإنسان هو العقل الجمعى الذى يتخذ رمزاً حيوانياً شعاراً له . فهو نقد موجه من قبل " دور كايم " وأنصار مدرسته لإثبات مذهبهم بعد نقد المذاهب الأخرى.

---

(١) انظر الدين ص ١٣٤

المسألة الثالثة: نقد نظرية دوركايم فى (الطوطم)

سبق وأشرنا إلى أن " دور كايم " وجه سهام نقده لكل من المذهب الطبيعى، والمذهب الحيوى.. وقام بهذا النقد ليدلل على صحة نظريته هو ، ولكن الباحثين تناولوا نظرية (الطوطم) بنقد لا هَوَادَةَ فيه ولا رحمة وأتوا على بنيان النظرية من القواعد وتلخص نقدهم فى الآتى :-

١- ليس من المستطاع دائماً أن نستقى معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكائن ما من مجرد النظر فى أصل تكوينه فإن التغيرات والنظم التى تحدث له فى أثناء نموه قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى فيها أدنى أثر فى بدايته. إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية [١]

٢- إن التساؤل الذى يبرز هنا هل نظام القبيلة الذى درس " دور كايم " أحوالهم يمثل دوراً أقدم من نظام الأسرة؟ هذه دعوى يعوزها الدليل بل هناك أدلة أثرية وتاريخية على عكسها[٢]

ثم هل قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل؟ هذه مسألة غير مسلمة، وقد قام بهذا الباحث " شمت " حيث أثبت ما قرره الباحثون بما لا يدع مجالاً للشك. أن قبائل استراليا الوسطى لم تكن أقدم جماعة إنسانية إنما هى الطور السادس الذى انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل استراليا بل هى أكثرها تقدماً وأحدثها[٣]، والمشكلة أن " دور كايم " قد قصر أبحاثه على (الطوطم) فى المنطقة الاسترالية المتوسطة ولم يشر إلى أنواع (الطواطم) فى شمال أمريكا إلا نادراً بينما المنهج العلمى كان يوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة (للطوطمية) فى جميع صورها لا أن يتوقف عند صورة واحدة (للطوطمية)، وهذا ما فعله"

---

(١) الدين ص ١٥٥.

(٢) نفسه ص ١٥٤ / ١٥٥

(٣) نشأة الدين ص ١٧٤

دور كايم " إذ قصر بحثه على منطقة معينة استقى معلوماته عنها من السياح والرحالة. ثم عمم أحكامه على الإنسان البدائى فى كل زمان ومكان.

٣ـ هل البدائيين الذين درس " دور كايم " أحوالهم كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال (الطوطم) ورموزه هو تقديس للمجتمع الذى ينتمون إليه؟ مع أن الذى يظهر من بحوث علماء الأثنوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الآفاق فى التفكير. من جهة أخرى لا يمكن التسليم بما ذهب إليه " دور كايم " من أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة إنسانية. إن الطوطمية كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت فى صدر العصور الحديثة. وهذه الشعوب ظلت بمعزل عن الحضارات التى ظهرت بين سكان القارات. ولكن هل استمرت تلك الشعوب بمعزل عن تغيير معتقداتها وظلت محافظة على تلك المعتقدات؟ بل إن التسليم بهذا يحتاج إلى دلائل كثيرة تشير إلى عكس ما ذهب إليه " دور كايم"

وعلى فرض أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة سارت عليها الشعوب البدائية منذ نشأتها فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة فى فاتحة الإنسانية ولجميع شعوبها على الإطلاق.

وكما يقول الدكتور " عمارة نجيب " كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلاً على عكس هذه الفكرة أى على أن (الطوطمية) لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها للأنظمة الاجتماعية والقواعد (الطوطمية)[١]

ويمكن فى نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية ممثلة فى (الطوطمية) سبقها وحى سماوى مسخه عقل الإنسان وعواطفه[٢]

---

(١) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافى وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢٥

(٢) الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢٥

٤- على أن التساؤل الهام هل (الطوطمية) نظام دينى أصلاً؟ أو هو نظام اجتماعى فحسب؟ إن الاستقراء الدقيق للعشائر الاسترالية لا يثبت إطلاقاً فكرة "دور كايم"

لقد اتصلت(الطوطمية) اتصالاً قوياً بحياة العشيرة وبحياة الاتحاد وبحياة القبيلة ثم بحياة الفرد قبل ذلك أو بعد ذلك فالأمر سيان. غير أن الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية أو الأفراد غير واضحة على الإطلاق يسودها الغموض وتكتنفها الشبهات أو بمعنى أدق تكاد تكون معدومة، ومن العجيب أن يأتى " دور كايم " ويجعل منها مصدر الحياة الدينية ومنبعها. بينما ينشر هذا العدد الكبير من الباحثين أبحاثاً فى ضوء تجارب وأبحاث فى استراليا نفسها ينكرون فيها أية صلة بين الطوطمية والعقيدة الدينية[١]

٥- لقد اعترف " دور كايم " أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو " الإله الأوحد " وأنه كائن أزلى أبدى تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره وبالجملة فجميع الأمور ترجع إليه ليس فقط فى الحياة وإنما بعد الموت حيث يميز هذا الإله بين المحسن والمسئ[٢]

بعد ظهور هذه الحقائق نرى " دور كايم " يضرب عنها صفحاً وبدلاً من أن يقرر عقيدة التوحيد نراه يدخل فى جدال عنيف مع الباحثين الذين ذهبوا إلى أسبقية عقيدة التوحيد وكما يقول الدكتور " دراز " يعترف " دور كايم " بكل هذا. ولكن عند استنباط نظريته فى الألوهية يضرب صفحاً عن ذكر هذه الصورة الدينية الحقيقية ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل فى حفلات تضم كل شئ إلا الدين والعبادة ويترخص فيها بارتكاب أعمال شاذة تنافى قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة عندهم بانتظام.

---

(١) الدين ص ١٧٣

(٢) نفسه ص ١٥٦/١٥٧

يعمد إلى هذه الحفلات الماجنة فيرسم لنا فيها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلاً : إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه ومظهره[١] هنا التحكم والهوى والرغبة لا الحكم الذى يسنده الدليل وتعضده الحجة. لقد رجح أمراً مشكوكاً فيه على أمر مقرر خاصة أن الذين قدموه من أهل الاختصاص فى علم الأنثربولوجيا، و " الإتنولوجيا " بينما " دور كايم " لم يكن من علماء هذين العلمين إنما أقام أبحاثه على دراسات غيره من الباحثين[٢] ولذلك كان النقد إليه عنيفاً من قبل المختصين وكانت حجتهم مما يصعب الرد عليها من قبل " دور كايم " ومن ذهب مذهبه.

لعلنا قد أسهبنا بعض الشيء فى الرد على " دور كايم " ولكن ذلك مرده إلى أنه الأكثر شهرة من غيره ممن ذهبوا إلى أن الباعث على الدين هو (الطوطم)

٦ـ أما فيما يتعلق " بتايلر " و " ويلكن " فإن ما ذهبا إليه يقوم على فهم خاطئ للديانة (الطوطمية) لأنهما ظنا أن (الطوطمية) مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات مع أن (الطوطمية) تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات. لأن أفراد العشيرة لا يقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده لأن الذى يعبد الحيوان أو النبات يعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلهه على حين أن النظام الطوطمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عُباد بآلهة. بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولُحْمَةْ النسب الوثيق، ولو كانت الطوطمية متشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها فى أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما يذهب " تايلور " وويلكن " لما ظهرت فى الصورة التى وصفناها بل تظهر فى الصورة التى تبادرت إلى ذهنيهما وهى عبادة الكائنات نفسها التى حلت فيها هذه الأرواح وهذا[٣] لم يحدث

---

(١) الدين ص ١٥٧

(٢) نشأة الدين ص ١٧١

(٣) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافى

٧ـ أما ما ذهب إليه " جيفوفنس " فإن نظريته تصور (الطوطمية) على أنها ناشئة عن عمل إرادى قصد إليه الأفراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ولو كان الغرض من (الطوطمية) أن يتقرب إليها الإنسان لعقد الإنسان هذه الصلة بينه وبين أكبر مظاهر الطبيعة قوة وبطشاً وإثارة للرهبة والخوف فى نفس الإنسان مع أن الواقع أن معظم هذه (الطواطم) تتألف من نباتات، وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان. وهذا يدل على أن القبيلة والعشيرة اتخذوها رمزاً فحسب ولكن أعطوا لها مفهوم القداسة والتعظيم[١]

نقد القول بأن الباعث على التدين هو الحب

إن اختزال الباعث على التدين فى كونه شعوراً بالحب ينقص مفهوم الدين ويبسطه إلى حد كبير. مع أن هذا القول جزء من بواعث متعددة وليس هو الباعث الوحيد كما يريد أنصاره له.

ثم إن الشعور بالحب معنى جميل، ولكن هل يصل إلى درجة يجعل الإنسان يعتقد فى الدين، ويرتبط بالمعبود؟ من الممكن أن تكون حالة الحب تلك دافعة للإنسان إلى الطاعة والعبادة، وذلك بعد اعتقاده فى دين من الأديان مثل المسيحية أو الإسلام أما أن تحرك هذه العاطفة الإنسان البدائى إلى التدين فهذا فيه نظر ويحتاج إلى تمحيص.

نقد القول بأن التجارب النفسية هى الباعثة على التدين

إن أصحاب هذه الفكرة بالرغم من إفاضتهم فى شرحها وبيان فلسفتها إلا أن هذه الوجهة لا تنطبق على سائر الديانات وهى أجدر بأن تلحق بالفكرة الفلسفية منها بالوجهة الدينية. لأنها بلغت حداً كبيراً من التجريد يبعد أن تكون فكرة عالمية فى تفسير الباعث على التدين، ومن ثمَّ تستعبد هذه الفكرة على الرغم من عمقها وجدتها لتلحق بالفلسفة بعيداً عن الدين[٢] لأن مجال الفلسفة أولى بها عن مجال الدين.

---

(١) الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ١٧٣ وما بعدها.

(٢) الدين بتصرف ص ١٣٨.

المسألة الرابعة: نقض القول بالتطور فى خلق الإنسان

بنى دعاة التطور فى الدين على مذهب التطور فى الكائنات. تلك النظرية التى دعا إليها "ديدرو" [١] و لامارك[٢] وأخذت شهرتها على يد " دارون " [٣] ومفاد هذه النظرية أن الكائنات تطور بعضها عن بعض [٤] وقد صبغت هذه النظرية الحياة الأوربية وكان لها تأثير كبير فى جميع نواحى الحياة وفسَر بها بعض الباحثين نشأة الدين عند الإنسان يقول أحدهم: إننا إذا قبلنا نظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا فإننا مضطرون إلى أن نبحث عن أصل العواطف والبواعث الدينية فى تلك الغرائز التى ليست فى أصلها دينية بصورة بحتة[٥].

والتساؤل هنا هل نظرية التطور فى الكائنات مسلم بها؟ إننا بحاجة إلى نقض هذه النظرية أولاً ثم ننطلق إلى نقض نظرية التطور فى الدين ثانياً.

أولاً: نقض نظرية التطور فى الكائنات

إنه ما من أساس من الأسس التى قامت عليها نظرية " دارون " إلا وأبطلها الباحثون سواء من ناحية الحفريات[٦] أو من ناحية الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح[٧]. أو من ناحية علم الأجنة أو علم التشريح. هذه الأسس أضحت الآن حديث المؤتمرات العلمية التى انتهت إلى أن هناك عمليات تزوير واسعة تمت لصالح نظرية التطور على الرغم من عدم صحتها أصلاً[٨] وأخيراً ننقل هنا عبارة " آرثركيث " وهو أحد أرباب الدارونية والمنادين بها يقول : **(إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة**

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٠/ ١٩١ ، الموسوعة الفلسفية ـ المختصرة ص ١٣٨

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٣٤٨الدكتور عبد الرحمن بدوى

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥١

(٤) أصل الأنواع ص ١١٩

(٥) فى الدين المقارن ص ٢٧.

(٦) انظر خلق لا تطور ص ١٠٧/ ١٠٨ وانظر الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٧) انظر العلم يدعو إلى الإيمان وتوحيد الخالق ج ٣ ص ٣٩/٨٨

(٨) انظر للأهمية خلق لا تطور لمجموعة من العلماء الغربيين ترجمة إحسان حقى ـ الناشر دار النفائس بيروت

علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه (١)

إذن فالقضية لم تعد أمر نظرية علمية، ولكن الأمر أصبح أمر إلحاد وكفر بالله، وأنه لا سبيل أمام أرباب النظرية إلا التسليم بها حتى ولو كانت تفقد الأدلة العلمية لأن السبيل الآخر هو الإيمان بالله وهذا لا يخطر لهم على بال، وبعد هذا وغيره نجد أنفسنا مضطرين لعدم قبول النظرية من الناحية المتعلقة بخلق آدم عليه السلام. مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣) وهذه الآيات وغيرها مثل قوله تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤)

تفيد الآتى:ـ

أولاً: أن آدم خلق بيد الله ولم يتطور عن شيء آخر. ومن نسله جاء الإنسان مستوياً فى خلقته مستعداً لقبول هدى الله.

ثانياً: أن آدم خُلق وهو فى أعلى مراحل النضج البشرى لا كما يزعم التطوريون بأن الإنسان البدائى كان فى أدنى مراحل المعرفة وكان متوحشاً وظل يتعلم من الحيوان إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

ثالثاً: أن الله خلق من كل شيء زوجين وهو إشارة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض بل فى الكون كله وحين تدلنا الآية على هذه الحقيقة نجدنا

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٢) سورة الحجر الآية ٢٨/٢٩

(٣) سورة البقرة الآية ٣١

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٩

أمام أمر عجيب عظيم. نطلع من خلاله على الحقائق الكونية فى هذه الصورة المبكرة كل التبكير[١]

بعد هذا كله نرى أن القول بعدم تعارض نظرية [٢] التطور مع حقائق القرآن فيه تجاوز ليس هناك أى مبرر لقبوله مادامت أن الأدلة القرآنية تدحضها وأيضاً الأدلة العلمية. ونختم بقوله تعالى ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[٣]

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣٨٥

(٢) انظر مقال الدكتور علم الدين كمال ـ تطور الكائنات الحية ص ٤٩. مجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد الرابع ١٩٧٣م ـ الكويت.

(٣) سورة الكهف الآية ٥١.

المسألة الخامسة: نقض القول بالتطور فى العقيدة

نسجل فى البداية أن دراسة الإنسان البدائى هى دراسة تقوم على الظن لا على اليقين.. وهذه الدراسة تقوم على خطأ مزدوج من ناحية الغاية والوسيلة لأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم منطقة حراماً حظرها على نفسه وأعلن فى صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، وتَستَرُ بثوب مستعار. لأن مؤرخى الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[١]

إن ما نعرفه عن التاريخ الإنسانى قبل خمسة آلاف سنة قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف سنة فيُعد أقل من القليل[٢]، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدرى التاريخ عنها شيئاً فما هى معرفة العلماء بمليونين ونصف مليون عام؟ لقد اكتشف فى جبل حجرى بصحراء تقع شرق بحيرة " رودلف " فى كينيا بقايا جمجمة وساق يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ولذلك تعتبر هذه البقايا أقدم أثر للإنسان الأول[٣] إن المعلومات التى ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير بل ضاعت فى أمواج متلاطمة فى محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف . إن كتابة تاريخ شخص فضلاً عن جماعة فى العصر الحديث أمرٌ فى غاية الصعوبة فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية [٤] ولذلك جانب الصواب الذين درسوا العقائد البدائية عند جماعة من البشر ثم عمموا أحكامهم على الجنس البشرى بأكمله ونستطيع أن نُجمْلَ أهم الانتقادات الموجهة إلى القول بالتطور فى الدين فى الآتى :-

---

(١) الدين ص ١٠٨

(٢) العقيدة فى الله ص ٢٤٥

(٣) انظر مجلة عالم الفكر العدد الرابع المجلد الثالث ص ٩٧٢

(٤) العقيدة فى الله ص ٢٤٥

أولاً: إن الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية خطأ فى الاستدلال. لأنه مبنى على أن تلك الأمم تمر بأدوار متقلبة، وهذا الافتراض لم يقم عليه دليل. بل الذى أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية أن فترات الركود والتقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة وبالتالى فلا تصلح الأنماط الدينية المنحطة أو الهمجية للاستدلال على نقطة البدء فى التدين لأنها تمثل انتكاسات فى تاريخ البشرية[١] وكما يقول "هوفدنج" "Hoffding" إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى فى موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً حتى إن أخطر القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بأدوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً "[٢]

ثانياً: إن القول بأن قوى النفس تسير فى نموها على قدم المساواة مع تقدم القوى المادية فى الحياة. قول ينقصه الدليل وتعوزه الحجة والأقرب إلى الصواب أن الحياة البسيطة التى كان يعيشها الإنسان البدائى كانت تدفعه إلى التأمل الدينى، وتنمى مشاعره. بينما اشتغال الناس بترف الحياة الجسدية فى العصور الحضارية، هذا الترف يؤدى إلى فتور الناحية الروحية لأن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها ككفتى الميزان لا ترفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى[٣]

ثالثاً: إن قياس تطور الدين على تطور الفنون والصناعات حجة على الذين يقولون بالتطور لا لهم . لأن معنى التطور فى الفنون والصناعات هى أنها تبدأ فى صورة بسيطة ساذجة ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركيب تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها وواضح أن تطبيق هذا القانون التطورى بمعناه العلمى الحيوى على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٠٩ وانظر فى الدين المقارن ص ٤٣

(٢) نقلاً عن الدين ص ١٠٩ وانظر الوحدانية ص ٨٠ للدكتور بركات دويدار مطبعة السعادة.

(٣) الدين ص ١١٠

والسهولة واليسر إلى التعقد بالإضافة إلى الأسطورية والنزوات الخيالية التى لا ضابط لها من العقل السليم[١]

ثم لو كان قياس تطور الدين على التطور فى العلوم والصناعات لوجدنا أن إنسان القرن العشرين قد وصل إلى درجة عالية من الاعتقاد والتطور الصحيح للألوهية ولكن هل حدث ذلك؟ الواقع يشهد بعكس ذلك. لقد اتخذ إنسان القرن العشرين أصناماً عبدها من دون الله مثل التقدم. والفردية، وتمجيد الأمة وأصنام القوة المسلحة وغيرها من طوطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات [٢] ثم هل اندثرت معبودات الإنسان البدائى بعد النقلة الحضارية الضخمة؟ إنه وبناءً على التطور يجب أن تتلاشى الوثنيات القديمة ولكن ها هى الوثنية البغيضة تطل علينا من آسيا وإفريقيا وأمريكا [٣]. هل أتى نبأ الهند وتفجيراتها النووية. للذين يقولون بالتطور من الأدنى للأعلى فى التدين؟ ما بال الكثرة من سكان الهند يعبدون البقرة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة فى القرن العشرين ويموت أكثرهم جوعاً ولا يذبحون بعض الحيوانات ثم ما شأن روسيا والصين والملحدون فى أوربا بعد التقدم العلمى المذهل؟ إنهم مع ما ذكر ما زال الكثير منهم لا يؤمنون بالله ولا يعترفون بالخالق[٤]. بعد هذا كله يصر البعض على القول بالتطور فى الديانات من الكثرة إلى الوحدة.

رابعاً: إن هناك حضارات ازدهرت فى أمم وأماكن معينة فى الماضى على حين أننا نجد هذه الأمم وهذه الأماكن الآن تمثل نموذجاً فى التدهور والتأخر فهل يصح القول بأن حالة التدهور والتأخر تمثل نقطة البدء لهذه الأمم أو تلك الأماكن؟[٥] بالضرورة لا. ومن ثمَّ فقد بطل القول بتطور العقيدة من التعدد والوثنية إلى التوحيد.

---

(١) الدين ص ١١١

(٢) انظر ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧ روجيه جارودى، وانظر معركة التقاليد ص ٨٢/٨١

(٣) انظر الإسلام والأديان ص ٣٣

(٤) مقارنة الأديان ص ٤٠/٣٩

(٥) فى الدين المقارن ص ٤٣.

إن الحديث عن التطور فى العقيدة بضاعة أوربية استنفدت أغراضها أو انتهت صلاحيتها. ويجب علينا أن نفهم ونقرر ونعلن أن الدين حقيقة علوية قائمة بذاتها. ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها فى عقيدة التوحيد.[١] الذى لم يكن هو نهاية الأطوار بل هو البدء والمختتم[٢] وهو الكلمة الأولى على لسان الأنبياء والكلمة الأخيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى قيام الساعة.

خامساً: إن القائلين بالتطور فى الديانات لو قصروها على الديانات الوضعية لكان لهم وجه أما أن يعمموا أحكامهم على الديانات الوضعية وغيرها فهذا لا يجوز ولا يتأتى. على أن نزعة التوحيد فى الديانات الوضعية ليس مردها إلى الإنسان وتفكيره ولكن مردها إلى بقايا الوحى الذى أنزله الله مع الرسل إلى الأمم مصداقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٣]

---

(١) فى النفس والمجتمع ص ١٦ ـ محمد قطب دار الشروق

(٢) الأديان فى القرآن ص ٣٢الدكتور محمود بن الشريف الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٦٣م

(٣) سورة فاطر الآية ٢٤

المسألة السادسة: مناقشة العقاد فى قوله بالتطور فى العقيدة

استناداً على قصة إبراهيم عليه السلام فى سورة الأنعام تابع الأستاذ العقاد الاتجاه القائل بأن الإنسان تطور فى التدين من التعدد إلى الوحدة وينبغى هنا أن نقرر أن متابعة العقاد لم يكن لهم على طول الخط. لأنهم حين قالوا بأن الإنسان مصدر الدين وذكروا البواعث عليه. لم يقولوا بأنه انتهى إلى التوحيد الذى جاء به الرسل. لأن غالبيتهم لا يؤمنون بالله أصلاً. أما الأستاذ العقاد فإنه تابعهم فى القول بأن بداية الدين التعدد. ثم توصل الإنسان إلى التوحيد الذى جاء به الرسل. واستدل بقصة إبراهيم عليه السلام الواردة فى قوله تعال ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

كانت هذه الآيات هى التى استدل بها العقاد على التطور فى العقيدة "يقول فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار، وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ (٢)

والسؤال الآن هل فعلاً هذه الآيات تدل على التطور فى العقيدة والانتقال من الوثنية إلى التوحيد كما ذهب العقاد؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن فى استعراض ما قاله العلماء فى تفسير هذه الآيات.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦ ـ ٧٨

(٢) الله ـ كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦/٣٧. دار المعارف ١٩٦٣م

يقول الزمخشرى عن إبراهيم عليه السلام " كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها صانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها أما قوله (**هذا ربى**) فهذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكى قوله غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم بكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة "[١] (**إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات**) أى للذى دلت هذه المحدثات عليه وأنه مبتدؤها ومبتدعها. ثم يتساءل الزمخشرى بقوله " فإن قلت لمّ احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت الاحتجاج بالأفوال أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب "[٢]

ويعلق ابن المنير السكندرى على عبارة الزمخشرى بقوله " وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسانه "[٣]

أما الفخر الرازى فيقرر أن إبراهيم ما كان شاكاً وإنما أراد أن يثبت لقومه أن الإله واحد وأن ما يعبدونه من دونه ليس لهم عليه حجة ويحشد الرازى الأدلة لإثبات أن إبراهيم كان يدعو قومه بعد أن دعا أباه إلى التوحيد وأن هذه الواقعة حدثت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض ثم يقول " ومن كان منصبه فى الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب "[٤]

وحجة أخرى يسوقها " الرازى " وهى أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكره هذه القصة قال سبحانه ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ** ﴿٨٣﴾ ﴾[٥] ولم يقل على نفسه . ثم يقول

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣١و انظر الألوسى ج ٧ / ٨ ص ١٩٨ / ١٩٩

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٣) هامش الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٤) التفسير الكبير للرازى ج ١٣ / ١٤ ص ٤٧ ـ ٤٨

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٣

" فلنعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه "[١]

أما تخريج قوله (هذا ربى) فيذكر " الرازى " أن هذا ليس على سبيل الإخبار وإنما على سبيل المناظرة. كمن يعبر عن شبهة الخصم بلفظها حتى يرجع إليه فيبطلها أو يقال إن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناءً عنه لدلالة الكلام عليه أو ذكره على سبيل الاستهزاء كما يُقال لذليل ساد قوماً هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء[٢] وكلها محاولات عقلية تؤيد الأدلة النقلية التى تدل على توحيد إبراهيم أولاً لله ثم مجادلته لقومه.

أما " الشهر ستانى " فقد أبدع فى استنباط دلائل التوحيد من هذه الآيات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. يقول الشهر ستانى " بعد إيراد قوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ** ﴾[٣] فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول (**لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين**) رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون فى مدارج الهداية "[٤]

ويُخَرجْ قوله ﴿ **فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ** ﴾[٥] بقوله " إن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج "[٦] ويَعُدُ هذا شاف كاف[٧] ويبين ما اشتملت عليه هذه الآيات وما قام به إبراهيم عليه السلام من بيان الحجة لقومه وإلزامهم إياها فيذكر أنه أى إبراهيم " قرر مذهب الحنفاء وأبطل مذاهب الصابئة، وبيَّن أن الفطرة هى الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها. وأن

---

(١) نفسه

(٢) نفسه ج ١٣ / ١٤ ص ٤٩ / ٥٠

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٧

(٤) الملل والنحل للشهر ستانى ص ٣٠٧

(٥) سورة الأنعام الآية ٧٨

(٦) الملل والنحل ص ٣٠٧ ومنهج الشهر ستانى ص ٥٧١

(٧) نفسه

الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة و المبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها (ذلك الدين القيم) والصراط المستقيم والمنهج الواضح والمسلك اللائح قال تعالى لنبيه المصطفى ﷺ. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [١] يا لها من شفافية مطلقة كشف عنها الشهر ستانى بأوضح عبارة وأجملها وأوجزها وزيَّن كلامه وطلى حجته باستدلاله الموفق بقول الله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا) فهذا القول هو الفصل والحكم الذى لا معقب له.

وقد سار على هذا النهج ابن كثير رحمه الله. إذ يقرر أن إبراهيم عليه السلام فى هذا المقام كان مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه ثم يتساءل كيف يكون إبراهيم ناظراً فى هذا المقام وهو الذى قال الله فى حقه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [٢] وقال ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [٣] وقال ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ [٤]

إن إبراهيم أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد هذا أنه كان مناظراً لقومه قوله تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ [٥]

وقد أنكر الطبرى على من خرَّج المناظرة وأنها كانت إقامة الحجة على قوم إبراهيم منه وانتصر لما روى عن ابن عباس وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكواكب هذا ربى، وبعد أن عدد ما استدل به الذين أجروا الآية على ظاهرها قال " وفى خبر الله تعالى عن قول إبراهيم حين أفل القمر (**لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين**) الدليل على خطأ هذه الأقوال (الذين صرفوها عن ظاهرها) وأن

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠. ٣٢ وانظر الملل والنحل ص ٢٠٧ ـ ٣٠٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١

(٣) سورة النحل الآية ١٢٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٥) سورة الأنعام ٨٠ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٢ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩

الصواب من القول فى ذلك فى الإقرار بخبر الله تعالى الذى أخبر عنه والإعراض عما سواه "[١]

والذى دعا الطبرى (عليه رحمة الله) إلى هذا القول ما روى من آثار عن ابن عباس، وقوله (لئن لم يهدنى) ولكن الرازى (رحمه الله) قال " لا يمكن حمل لفظ الهداية على التمكين وإزالة الأعذار ونصب الدلائل لأن كل ذلك كان حاصلاً . فالهداية التى يطلبها بعد حصول هذه الأشياء لابد وأن تكون زائدة عليه"[٢] ويكون معنى لئن لم يهدنى ربى " لئن لم يثبتنى ربى على الهدى. ليس لأنه لم يكن متهدياً . لأن الأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان "[٣]

وأخيراً بعد عرض هذا الحشد من الأدلة يتضح تماماً أن إبراهيم لم يكن شاكاً ولا معتقداً فى النجوم أولاً ثم فى القمر ثانياً ثم فى الشمس قبل أن يصل إلى التوحيد ولا أدرى كيف غابت هذه المعانى كلها عن الأستاذ العقاد (غفر الله له) وهو صاحب العقلية الكبيرة فى الدفاع العقلى عن الإسلام؟ اللهم إلا متابعته للغربيين فى هذا الشأن، وخطورة متابعة الغربيين فى القول بالتطور حتى وإن انتهى إلى القول بالإله الواحد. أننا ما دمنا قد سمحنا لأنفسنا بقبول التطور فى الدين فما المانع أن يأتى وقت تتطور فيه فكرة الإله ذاته . إلى فكرة غيره قد لا تمت إلى الدين بصلة.

يصور ذلك الأستاذ محمد قطب بقوله " إذا كانت الحياة تتطور من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد فماذا يمكن أن يكون ثابتاً على وجه الأرض؟ إن فكرة " الإله تُطور فى تفكير البشرية إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما يصورها الدين. لقد تطورت من قبل ويمكن اليوم أن تتطور . كانت عبادة للوالد وعبادة للطوطم، وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة ثم صارت عبادة لله ولكنها يمكن أن تتطور. يمكن أن تكون عبادة لأى شئ آخر " [٤] وهذا ما حدث بالفعل وينادى بها الآن البعض باسم

---

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٨٣/٤٨٤/٤٨٥ تحقيق أحمد شاكر ومحمود شاكر ـ طبعة دار المعارف .

(٢) التفسير الكبير للرازى ج ١٣/١٤ ص ٥٦

(٣) مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩/ ٢٦٠

(٤) التطور والثبات ص ٢١ محمد قطب دار الشروق

العلم والتقدم والتطور يقول " جوليان هكسلى " : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهى لا تستطيع الآن أن تقبل أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم العقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) وقد وصل هذا الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته ولا شك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر والمتطور "[١] إن التعبير هنا عن الإنسان الذى اخترع الدين بداية من السحر ونهاية إلى فكرة الإله الواحد. ولكن ما دام الأمر خاضعاً للتطور. فإن فكرة الإله الواحد التى اخترعها الإنسان لم تعد مناسبة للمرحلة التى وصل إليها العلم والإنسان ومن ثمَّ فإن الفائدة تكمن فى تجاوز هذه الفكرة وتلك المرحلة والبحث عن شيء آخر يسد الفراغ إلى حين. ثم يُتجاوز إلى شيء آخر وهكذا دواليك. هذا هو تصور الغربيين للتطور الذى تأثر به ماركس فى قوله " إن إزالة الدين بوصفه السعادة الوهمية للشعب هى الشرط الوحيد لتحقيق سعادته الحقيقية "[٢] وعبر عنه إنجلز بقوله " تكمن أصول الديانة فى النظريات المحدودة الجاهلة التى تنشأ فى حالة البهمجية "[٣]

وكما يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " إن تطبيق فكرة التطور على الدين تؤدى منطقياً إلى ما ذهب إليه " فويرباخ " من الاعتراف بالدين على أنه من وضع الإنسان والقول بأن فكرة " الله " نفسها ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم سداً لحاجات ما يسميه " التجربة الدينية "[٤] وفكرة التطور تلك - يواصل أستاذنا - تؤدى بالضرورة إلى تكذيب النصوص الدينية التى تقرر سمو التصور الدينى عند سيدنا آدم عليه السلام ، وتقرر استحالة قبول تعدد الآلهة فى أى عصر من عصور النبوة كما تقرر وحدة الدين عند الله (**إن الدين عند الله الإسلام**) وقد تنطبق هذه

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٨ - ٣٩

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٤٢٠

(٣) أصول الفلسفة الماركسية ج ٢ ص ٢٤٢

(٤) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ١١٩

النظرية أولا تنطبق على الأديان الوضعية أما الدين الذى هدى الله إليه الإنسان منذ آدم عليه السلام فلا يقبل هذه النظرية على أى حال من الأحوال وإنه لمن العبث فى تقديرنا، وفى تقدير كل منصف أن تُتخذ هذه النظرية المتهافتة أساساً تفسر فى ضوئه الحقائق الدينية الإلهية مهما تكن صعوبات هذا التفسير أو استحالته فى كثير من النقاط الرئيسة وإن كان من الجائز أن تتخذ أساساً لتفسير الأديان **الوضعية" ولله در ما قاله وقاله غيره من الذين يضعون الأمور فى نصابها الصحيح مهما كانت الأصوات العالية التى تنادى بغير ذلك**[1]

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ٧٢ ـ ٧٣